القدس في الشعر المغربي المعاصر

بقلم : إدريس الكنبوري - المغرب ■

احتلت قضية فلسطين في ديوان الشعر المغربي الحديث والمعاصر حيزا ظاهرا، واستأثرت باهتمام الشعراء المغاربة على اختلاف طبقاتهم ومشاربهم . وحتى في فترة الاحتلال الفرنسي لبلاد المغرب الأقصى وفورة المقاومة الشعبية التي أسهم فيها الشعراء بقصيدتهم ، لم يسكت هؤلاء عن محنة الشعب الفلسطيني المغتصبة أرضه والمستباح عرضه من قبل فلول الصهاينة المهاجرة إلى الأرض المباركة . حيث وجدنا الشعراء المغاربة يتغنون بفلسطين المباركة أرضها . بل لعل تزامن المحنتين ، محنة الاحتلال الفرنسي في الداخل والاحتلال الاستيطاني الصهيوني لفلسطين عزز لدى الشاعر المغربي من الشعور بفداحة الخطب وهول المصاب ، باعتبار أن هذا التزامن يعني أن الأمة بكاملها توجد تحت خطر داهم .

ولأن القدس هي واسطة العقد في المحنة الفلسطينية ، بل هي بالذات وجهة الغاصب ، وهدفه الذي يسعى إليه ، فقد كان للشاعر المغربي مساهمة واضحة في هذا المعنى .

لا تحرير إلا بالإسلام

لقد انشغل العلامة الراحل علال الفاسي في شعره بشتى قضايا الأمة العربية الإسلامية ، ونجد ديوانه زاخرا بما يؤكد ذلك ، ففي قصيدة تحت عنوان : " ذكرى مرور أربعة عشر قرنا على نزول القرآن الكريم " ، وهي قصيدة مطولة تتحدث عن بداية النبوة ونزول القرآن الكريم وما كان من الرسول ﷺ في أثناء الوحي ، وعن صحابته رضي الله عنهم ، وتعرج على دعوة الأمة إلى العودة إلى القرآن عقيدة وشريعة ، نجد علال الفاسي يقول :

يا أمة قرآنها دستورها
وزعيمها كان النبي المرسلا

عـــودي إلى الدين الحنيف عـــقـــيـــدة
وشـــريـعـــة وتـخـلـقـــا وتـعـــقـــلا
مـــا في ســـوى القـــرآن خـــيـــر يجـتـبى
أوفيْ ســـوى الإســـلام نهج يبـــتـلى (١)

ثم يقول :

جـــربتم دعـــوات غـــيـــر مـــحـــمـــد
مـــاذا جنيـتم ، هل عـــقـــدتم مـــوصـــلا ؟
هذي فلسطين الجـــريحـــة أصـــبـــحت
بيـــد اليـــهـــود أســـيـــرة لن ترسـلا
والقـــــدس أولى القـــبلتين يعـــده
أعـــداء أحـــمـــد كي يقـــيـــموا الهـــيكلا
مـــســـرى النبي ومـــبـــدأ المعـــراج قـد
أضـــحـى به دين النبي مـــعـــطـلا (٢)

ويربط الشاعر بين تحرير القدس والعودة إلى القرآن الكريم :

عـــودوا إلى الإســـلام يصلحْ شـــأنكم
وينيلكم نصـــرا مـــبـــيـــنا في الملا
إن العـــــروبة لا تعـــــود لمجـــدهـا
إلا كـــمـــا كـــانت بلاغـــا منـزلا
وبلادنـا والقـــــدس درة تـاجـــهـا
بيـــد الجـــهـــاد تفك فكا مـــعـــجـلا (٣)

وتتحول القصيدة لتأخذ منحى الشكوى الموجهة إلى الله الذي يستـجـيب لدعـوة المظلوم ويرحم المضطر ويكشف السوء ، إلى أن تقول :

يـا رادعـــا أهل الصليب وقـــد طغـــوا
لما صـــلاح الدين هب مـــجلجـــلا
يا منقـــذا للقـــدس من طغـــيـــانهـم
يا من أطاح بجـــيـــشـــهم حـــتى جـــلا
ضـــاقت بنـا ســـبـل النجـــاح ولم يـزل
إلاك عـــونـا للنجـــاة مـــؤمـــلا
يارب أنقـــــذ أرض قـــــدسك إنهـا
بك تحـتـمي وحـمـاك مـا لا يخـتلى ! (٤)

والقصيدة كتبت سنة ١٩٦٧م بعد هزيمة العرب أمام الكيان الصهيوني ، وتعكس حرقة الشاعر ولوعته على القدس المغتصبة ، بعد أن زادت الهزيمة العربية في الشعور بفداحة الاغتصاب وأنذرت بليل طويل للمسلمين قبل أن يأذن الله بالنصر .

وفي قصيدة أخرى تحت عنوان " فلسطين " كتبت سنة ١٩٧٣م على صوت النصر في معركة رمضان الشهيرة التي اندحر فيها العدو الصهيوني وسقطت أسطورة " الجيش الذي لا يقهر" ، لولا ما حدث بعد ذلك من خيبة سياسية حولت النصر هزيمة منكرة ، يقول علال الفاسي :

الـثـــــأر نـأخـــــذه ونـحـن جنـوده
ســـيـــرى العـــدو بنا أشـــد مطـارد
والقـــــدس ندخـله نـحـــرر أهـله
والمسـجـد الأقـصى وركن الساجـد (٥)

ويرتفع الشاعر بالقضية إلى معانيها الإسلامية الحقيقية التي تنطلق من وحدة المعركة بين أقطار المسلمين كافة وبين العدو الصهيوني ، ذلك لأن الهدف واحد وهو بيضة الإسلام ، والعدو واحد هو الصليبية الجديدة التي تلبس اليوم لبوس الدعوى الصهيونية :

أأخي لدى الأرض الحـــبـــيـــبـــة إننا
ســـيـــان في قـــفـص وقـــيـــد عـــاقـــد
مـــاذا أقـــول عن القـــضـــيـــة بلـورت
كل القـــضـــايا في جـــهـــاد واحـــد (٦)

وتحت عنوان : " الصفحة الأخيرة من مذكرات شهيد عند النكسة ، يقول :

والقدس من قائدها العظيم ؟
أين الرؤوس عندنا ؟
ليس الرؤوس ها هنا ؟
وحبكت مأساتنا
وانتظمت نكستنا
وانهزمت ثورتهم
الثورة المضادة . (٧)

وهي مقاطع من قصيدة مطولة كتبت عام ١٩٧١م ، في فترة ما بعد الهزيمة العربية الشهيرة

أمام الكيان الصهيوني في يونيو ١٩٦٧م ، يعبر فيها الشاعر عن حالة الارتباك التي دخلت فيها الأمة العربية بعد تلك الهزيمة ، وتراكم الخيبة والخذلان وظهور الخيانة العربية للقضية الفلسطينية التي انكشفت أكثر بعد حرب رمضان ١٣٩٣هـ / أكتوبر ١٩٧٣م . لقد كشفت الهزيمة عمق الضعف العربي ، وعرت حقيقة فاضحة ، وهي أن اختيار الأنظمة العربية للحرب في تلك الفترة لم يكن اختيار قصد استراتيجي بعد الاستعداد الكافي ، وإنما كان اختيارا سياسيا الهدف منه إظهار تلك الأنظمة بمظهر الأنظمة ذات التوجه القومي والمدافع عن الأمة ، ولم تكن الهزيمة هزيمة الشعوب العربية ، بل كانت هزيمة تلك الأنظمة . يقول علال الفاسي :

لكننا لم ننهزم
قد أدركنا الأشياء في إبانها
نحن هنا الشعب الذي لم ينهزم ،
ليس الملوك ها هنا
ليس العساكر ولا المماليك

ظمأ إلى القدس

ومن بين أجمل القصائد التي زانت الديوان المغربي الملتزم قصيدة " القدس" [٨] للشاعر الكبير أحمد المجاطي (المعداوي) ، وأجمل من ذلك أن القصيدة لم يرد فيها أي ذكر لكلمة القدس ، وتكفلت الصورة الشعرية والرمزية بكشف هذه المدينة الجريحة التي تنساب عبر مقاطع القصيدة كما يتقاطر الدم . والقصيدة غنية بالمضامين ، تتحرك على حبال الفاجعة العربية عبر إيقاع حزين وثائر ، يستفز القارئ ، ويجعله يتماهى مع الشاعر في مرآة انعكاس واحدة ، يقول الشاعر في عتبة القصيدة :

رأيتك تدفنين الريح تحت عرائس العتمة
تلتحفين صمتك خلف أعمدة الشبابيك
تصبين القبور وتشربين فتظمأ
الأحقاب
ويظمأ ما عتقت من سحب
ومن أكواب
ظمئنا والردى فيك
فأين نموت ياعمة ؟

تتحول القدس هنا إلى امرأة جريحة ، إلى رمز تدفن الثورة الجامحة (= الريح) تحت عرائش الظلمة الكثيفة التي تلبد سماء الوطن العربي ، وتلتحف صمتها خلف أعمدة الشبابيك التي ترمز إلى الحدود الجغرافية بين العرب ، والتي حالت دون وحدتهم لتحقيق هدف التحرير ، وربما ترمز أعمدة الشبابيك إلى الأنظمة العربية ، خاصة إذا تأملنا في هذه الصورة وأدركنا كم توحي لنا بأسلاك السجن . أليس الشباك هو في النهاية صورة مصغرة لقضبان الزنزانة ؟ . ولكن القدس ، هذه التي تلتحف صمتها في صورة المرأة الجريحة المسكينة التي لا لحاف لها سوى الصمت ، تصب القبور . وتأمل في هذا التصوير البديع لمدينة تصب القبور ، وهذا التوتر بين الكلمتين ، بين فعل يقتضي مفعولا من جنسه (تصب الماء ، تصب الزيت ...) وبين مفعول به لا علاقة دلالية بينه وبين الفعل في هذه التركيبة المتوترة التي تشكل انزياحا رقيقا ، لا يشط عن الذوق ، ولا يهيم في سفاسف الانزياحات الحداثية التي أفرغت اللغة من نفسها بعد آن أفرغتها من حمولتها الدلالية .

لقد قدمت القدس مئات الآلاف من الشهداء ، بل الملايين ، منذ أسرها الأول على يد بني إسرائيل وتحريرها على يد القائد صلاح الدين وإلى اليوم ، طوال عهود كان الدم فيها هو اللون الوحيد الذي يطبعها . إن هذه الخلفية التاريخية التي تقف خلف هذه الصورة البديعة للشاعر أحمد المجاطي لا تجعل القدس تكتفي بتقديم الشهداء ، لأن عددهم لا يحصى ، ولأن الأرض امتلأت بقبورهم ، ولكنها تصبهم كما ينصب المزن من السماء مدرارا ، لأنهم

قوافل مندفعة كالتيار . فالقدس إذن تصب القبور ، ولكنها لا تطفئ ظمأها إلى التحرير ، فهي تشرب من دماء الشهداء ومع ذلك تظمأ وتظمأ معها الأحقاب . ويصرخ الشاعر في النهاية متوجها نحو القدس هذه المرة في عناق قوي يحول المدينة إلى جزء من كيان الشاعر :

ظمئنا والردى فيك
فأين نموت ياعمة ؟

هذه النهاية في المقطع تتجمع فيها كل المضامين ، وتختزل المعاني العديدة التي تتضمنها القصيدة ، وربما لأجل ذلك جعلها الشاعر نهاية للقصيدة أيضا على ما سوف نرى ، ثم يقول :

مددت إليك فجرا من حنيني
للردى
وغمست محرائي ببطن الحوت
فأية عشوة نبضت بقلبي في دم
الصحراء
وأي رجاء ؟
تفسح في نقاء الموت
أشعل ظلمة التابوت
في عيني
فجئت إليك مدفونا
أنوء بضحكة السلطان
وبؤس الفجر في وهران

تتحول القصيدة هنا من الحديث عن المدينة إلى حديث الشاعر عن نفسه في علاقته بها ، فهو يتشوق إلى الموت فيها ، ويغمس محراثه (السيف أو القلم ...) في بطن العدو الذي رمز إليه بالحوت ، أحد ساكنة البحر الكاسرة ، ولكنه يقف مقيدا بل مدفونا ، وليس مستشهدا ، للدلالة على اغتيال خارج أرض المعركة للحيلولة بينه وبين الدخول إليها ، ويرمز الشاعر لتفسخ الأنظمة العربية ولا مبالاة الحكام العرب بضحكة السلطان ، وبؤس الفجر في وهران ، وينهي الشاعر قصيدته بالمقطع التالي :

وتلتفتين
تصبين القبور
وتشربين
لا يبقى مع الدم غير فجر من نواصيك
وغير نعامة ريداء
وليل من صريف الموت
قص جوانح الخيمة
فتظمأ الأحقاب
ظمئنا والردى فيك
فأين نموت ياعمة ؟

نهاية القصيدة هي نهاية التجربة القاسية الكتابة الشهادة ، فالقدس تلتفت ولا يبقى منها مع الدم غير فجر في نواصيها ، رمزا لبشارة المستقبل والوعد بالتحرير ، وغير نعامة ريداء : كناية عن العرب ، حيث يدس الجميع رأسه في الرمل كشأن النعامة ويدير ظهره للقدس ، وغير ليل من صوت الموت يقص جوانح الخيمة ، استعارة للوطن العربي الذي قصت منه فلسطين ، لكن دائرة الاستشهاد والبحث عن أفق جديد ، وتقديم الشهداء قرابين للتحرير ، تظل متواصلة وواعدة .

بين يدي التاريخ

من عادة الشعر القومي أو الإسلامي أن ينعطف إلى التاريخ يتزود منه لزمنه ، ويقف من هذا الأخير موقف الذي يقارن بين زمنين ، زمن الماضي ، وهو زمن البطولات والنصر ، وزمن الحاضر، الغارق في الخيبة والإحباط والفشل ، والشاعر المسلم الملتزم كثيرا ما يرى في تاريخه الماضي صورة حية ومشرقة لما ينبغي أن يكون عليه الحاضر ، كما يرى فيه خزانا لا ينضب .

هذه التوطئة القصيرة مدخل لابد منه لقراءة قصيدة (صلوات المستضعفين) للشاعر حسن الأمراني أحد الأصوات الشعرية العربية والمغربية البارزة التي أغنت الديوان الإسلامي في القصيدة المغربية المعاصرة إلى جانب أسماء وازنة ، لكن

تجربته تمتاز بالغنى والتعدد في الشكل والمضمون، وهو أكثر الشعراء المغاربة غزارة في الإنتاج ، وحرصا على تطوير تجربته وبناء صرحه الشعري الكبير ، إلى الحد الذي خصص لها مجتمعات بكاملها ، كما هو الشأن مع ديوان " المجد للأطفال والحجارة " .

في القصيدة المذكورة سابقا ، والتي جعلها الشاعر مقطوعات شعرية تلتقط اللحظات والمحطات الدامية في تاريخ الأمة ، يخصص الشاعر للقدس مقطعا من صفحتين تحت عنوان (صلاة إلى القدس) [٩] ، يقول في مستهله :

من أين نمر إلى القصر ؟
ومن أين يمر النصر إلينا ؟
من أين نطل على القدس ؟
كيف نعيد القدس حمام سلام بين يدينا ؟

يبدأ المدخل بهذه التساؤلات ، إنها بداية مرتبكة ، تطرح القارئ في لحظة واحدة في لجة التاريخ (من أين نمر إلى القصر ؟) وهذا يتضمن معنى آخر غير المعنى الذي يقوله المقطع ، وهو أن هذا المرور ، أو محاولة المرور ، سبقه خروج من القصر اقتضى البحث عن سبل العودة إليه ، ولا يجد القارئ صعوبة في إدراك المقصود بالقصر فهو بكلمة رمز للسيادة والسؤدد ، أو رمز للملك الذي كان للمسلمين في العصر الذهبي ، عصر الجهاد والفتوحات والقوة التي تهابها الدول والأمم وتخشع أمام بريقها الأبصار ، والقصيدة / المقطع ، تبدأ عامة ثم تتدرج ، تبدأ من الأمة قبل أن تنحدر إلى فلسطين ، وكأن هذا البناء الشعري رتب تماما على نمط انهيار البناء الحضاري كله ، القصيدة بدأت بالأمة أيضا ، ثم وصلت القصيدة إلى القدس ، والانهيار أيضا وصل إلى فلسطين بعد أن سقطت كلها .

ويرمز البناء الشعري في القصيدة / المقطع إلى أن هذا التتابع يتطلب تتابعا مشابها في محاولة التخلص من الأسر والاحتلال ، إن عودة القدس وفلسطين غير ممكنة بدون عودة الأمة إلى مجدها الأول (القصر) ، آنذاك يمكن أن يتحقق النصر ونطل على القدس وتصبح هذه المدينة المباركة حمام سلام (أرض تعايش الديانات الثلاث) تحت قيادة المسلمين (بين يدينا) كما كانت دائما منذ عهد الخليفة الثاني .

ربما كانت هذه الخلفية الفكرية وراء اختيار الشاعر حسن الأمراني تضمين قصيدته مقطعا من أغنية (زهرة المدائن) للشاعر اللبناني سعيد عقل ، والتي تؤديها المغنية فيروز ، فخلفية الأغنية المذكورة هي خلفية مسيحية ، يقول الشاعر :

" سأمر على الأحزان "
" لن يقفل باب مدينتنا "
" والحزن الرابض فوق مدينتنا يسألنا أن نقتحم النيران "

إن هذا الاختيار يخدم هدف الشاعر في رغبته رؤية القدس لكل الديانات تحت قيادة الأمة الإسلامية في وضع يختلف عن الوضع الحالي ، حيث يفرض الصهاينة على المدينة صوتا واحدا ويقفلون أبوابها في وجه المسلمين والمسيحيين ، لكون عودة القدس إلى المسلمين هي التي تنقلها من هذا الوضع إلى وضع تكون فيه فناء رحبا للجميع " لن يقفل باب مدينتنا " ، ودون هذا الهدف دماء وخوض معارك و " أن نقتحم النيران " .

وهنا ينعطف الشاعر إلى التاريخ :

كنا في أغوار الجب نناديك :
صلاح الدين
صلاح الدين
ناجيناك عسى تمنحنا السيف
يقطع رأس التنين
لكنك ما جئت
ولا في اليرموك تجلى سيف الله
والنسوة خلف القوم بأسياف
تترصد من ولى الأدبار

لكني أبصر صوتا يخترق الأحقاب
لن يبلغك القدس سوى درب واحد
سيف وكتاب

يستخدم الشاعر كلمة قرآنية هي (الجب) الواردة في سورة يوسف (غيابة الجب) ، وهي كلمة تختزن معاني الظلمة الكثيفة والأسر والحصار والمؤامرة ومحاولة القتل العمد والخيانة من الإخوة ، وكل هذه المعاني تجمعها كلمة واحدة في القرآن الكريم هي غاية في الإعجاز ، وهي (الغيابة) . لكن هذه المعاني ليست غائبة عن الشاعر ، بل هو يستحضرها للترميز إلى ما يعانيه المسلم (= الشاعر) اليوم مما يحول دون مروره إلى القصر (السلطان) وتحقيق النصر (التحرير) ومن داخل هذه اللجة يستصرخ الشاعر صلاح الدين الأيوبي المعروف بـ (الناصر) لنصرته القدس الأسيرة في أيدي الصليبيين في معركة حطين العظيمة عام ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م ، من أجل أن ينجده بسيف يقطع رأس التنين (الصهيونية) . لكن هذه النجدة لا تأتي ، ولا تأتي نجدة خالد بن الوليد والنصر في موقعة اليرموك عام ٦٣٤ م ، ولعل اختيار هاتين المحطتين البارزتين في تاريخ المسلمين له دلالة كبيرة وكاشفة في ثنايا القصيدة . فمعركة حطين كانت لتحرير القدس بعد عشرات السنين من الأسر في يد الصليبيين ، ومعركة اليرموك جهادا ضد الروم البيزنطيين، وكانت مناسبة لفتح الشام ، فالعدو واحد في الحالتين ، وهو نفسه العدو الذي يغتصب القدس في لغة القصيدة .

ومع أن هذه النجدة لا تأتي ، فإن الشاعر لا يرتمي في أحضان اليأس ، ويتخلى عن القضية، فهناك صوت يخترق الأحقاب ، صوت دوى في كل الأحقاب التي مر بها المسلمون ، أن لا درب إلى القدس سوى درب واحد : السيف والقرآن ، فحطين واليرموك سمعتا نداء الأحقاب فانطلقتا على هذا الدرب : السيف (الجهاد) والكتاب (القرآن) .

في قصيدة " حديث القبرة " يقف الشاعر حسن الأمراني على مشاهد المأساة في قضية فلسطين : مأساة التخلي عن القضية ببيعها ، والمتاجرة بها على موائد السلام والاستسلام ، وترك نداء الجهاد والقوة والمقاومة ، ولا يقول لنا الشاعر إن قضية فلسطين بعد كل ما حدث لم تعد قضية حقا ، بعد أن خضعت للمزاد ، ولكن الانتهاء من قراءة القصيدة يجعلنا نلتمس هذه الحقيقة .

تبتدئ القصيدة بمطلع جميل تفوح منه رائحة المؤامرة الخبيثة لغة ومعنى ، من خلال صورة شعرية تستعيد أو تستلهم مؤامرة اليهود ضد المسيح عليه السلام حين أجمعوا أمرهم بعد " العشاء " الشهير في الميثولوجيا والفن المسيحيين :

بعدما أجمعوا أمرهم في العشاء
بعدما أوضعوا ...
يبتغون الوقيعة ما بين أم وأب
وبين امرئ وأخيه
وصاحبة وبنيها
ويستبدلون بماضي العزائم سيف الخشب
بعدما هيؤوا قبره
بعدما وقعوا ... (١٠)

هذا الجوالموحي بالمؤامرة ، والمنتهي بالتوقيع على صك بيع القضية / الأرض في مزاد السلام، والسلام أخذ ورد وتفاوض لبراعة المساومة ، يتخلى القائد عن ماضيه وجهاده ويطلب المغفرة من العدو كالمذنب المجلل بالعار :

أطلق القائد الملهم الحنجرة
والمسدس في خصره
يتدلى كزناد راهبة تسأل المغفرة
قد رفعنا جدار السلام
وسقنا إلى البلد الميت غيمته الممطرة

الأندلس وغرناطة

قصيدة " غرناطة الثانية " شهادة حية لشاعر

يتأمل في تساقط الوضع العربي ، لقد كتبها الأمراني عام ١٩٩١م ، ولهذا التاريخ دلالة تاريخية وحضارية شكلت خلفية للشاعر ، وإذا علمنا أن تلك السنة هي التي شهدت انعقاد مؤتمر مدريد للسلام لجر القيادة الفلسطينية إلى توقيع عقد بالتسليم ، تكون الدلالة الشعرية قد استوعبت الدلالتين التاريخية والحضارية ، ووقعت هي الأخرى شهادة الاعتراف بالفاجعة .

وسقوط الأندلس ، وغرناطة ، موضوعان طرقهما الشعراء العرب والمسلمون لتصوير الهزائم المتوالية للأمة ، وخاصة مشهد سقوط غرناطة وتسليم أميرها أبي عبد الله مفاتيح أبوابها وتعبير أمه له وهو يبكي كالنساء ، وما نتج عن ذلك من تقتيل للمسلمين وخروجهم من الأندلس يلعقون جراحهم ، تكاد تكون الصورة هي هي في النسخة المعاصرة ، بل إن اختيار أرض الأندلس لعقد المؤتمر المذكور رمزية واضحة تحمل أكثر من مضمون ، يقول الشاعر حسن الأمراني :

يستعير مدامع العشاق
هذا النيزك الفضي عند تكسر الأشواق
يعلن في القبائل أن آخر قلعة بدوية
قد سلمت للذميين سلاحها
لم يبق في ليل الجراح سوى الرحيل
هل يفتح التاريخ ثانية زمان التيه
تحت مظلة بيضاء من باب لباب (١١)

ويضيء المعجم الشعري في هذا المقطع أبعاد المأساة : يستعير .. تكسر الأشواق .. قلعة بدوية .. أسلمت للذميين .. الرحيل .. زمان التيه ..مظلة بيضاء .. من باب لباب .

ولكن معجما آخر ينصب ليفتح كوة من الضوء داخل دائرة الجراح ، لكي لا يدوم زمان التيه ، ولا يستمر رفع المظلة البيضاء والاستسلام لرغبة العدو في الخروج من الأرض المباركة ، ذلك أن الانتفاضة الفلسطينية وسلاح الحجر تقف في وجه السقوط ، وتبشر باندحار الهزيمة :

للطفل منطقه البهي
وللحجارة صولة الشهداء
فلتكتب وصيتك الأخيرة
ارسم نشيد الفتح والمسرى
على زند الأصيل
ستظل وحدك تسترد نضارة الأشياء ...
وحدك أنت في غرناطة
سيف الخاصرة الذين تبوؤوا سرر الخيانة

إن ديوان " المجد للأطفال ..." غني بالقصائد التي تتخذ من القدس وفلسطين والانتفاضة عالما لها، ونفس الأمرمع دواوين الشاعر الأمراني الأخرى ، ولأن غرضنا في هذا المقال التمثيل لما كتبه الشعراء المغاربة حول القدس لا الحصر ، فإننا نكتفي بهذه اللمحات على أمل العودة في غير هذا المكان .

وينسج الشاعر عبد الرحمن عبد الوافي في قصيدته " حكاية الأخضر مع الغول الأعور " قصة المقابلة الدائمة بين الخير والشر ، والصراع بين قيم الحرية وقيم القهر والاستبداد ، من خلال شخصيتين رمزيتين هما الأخضر والغول الأعور ، إن الأخضر هنا هو اللون المرتبط بالخصوبة والنماء والانبعاث ، وفصل الربيع المبشر بتجدد الأرض والنبات ، وهو أيضا رمز للإسلام في الذهنية الغربية ، أما الغول الأعور فهو إشارة رمزية إلى كائن خرافي يتغذى من أوهام الناس فقط ، ولا يجد له مكانا إلا في النفوس الضعيفة التي تهزها الخرافات ، وهو كناية عن قوى الشر العمياء التي لا تعرف القيم والمثل في زحفها .

وفي هذه القصيدة المطولة يستحضر الشاعر مكامن الجرح في جسم الأمة الإسلامية ، والمجابهة المستمرة بين رمزي الخير والشر ، والعدوان المتربص بالأمة ، فتحضر القدس السليبة كأرض موعودة لمسير الأخضر ، يقول الأعور :

والآن ... الويل لكم إن لم تأتوني قبل قيامي من هذا

المجلس بالأخضر ...
حتى يدري أني الأعلى والأقوى والأمكر
في كل بلاد البيضاء
في كل بلاد السوداء
في أخضر أرض
أعني المفضوب عليها : إيران
في ركن من لبنان
في خرطوم الإرهاب ، وفي بغداد العدوان
في القدس الأرض الموعودة
في غزة أخت البركان [١٢]

الشاعر محمد علي الرباوي في قصيدته " كتاب البحر " التي يضع تحت عنوانها " إلى مجنون القوس " يبشر منذ البداية بتجدد دماء القوة والجهاد والعزيمة في جسم الأمة لاسترداد الحق الضائع :

أطاعن بحرا ، وأهتف بشرى
توضأ قفري ، فما عاد قفرا [١٣]

هكذا تبدأ القصيدة في لجة الصراع وغمرة المواجهة ، لكن الشاعر ليس المتنبي الذي يطاعن " خيلا من فوارسها الدهر " ولكنه مقاتل معاصر يطاعن بحرا ، والبحر هنا عالم متكتل من الأعداء ، له نفس الامتداد والعمق والمغامرة ، لكن الشاعر هنا يبشرنا بالانتصار ، فلم يعد الوطن العربي قفرا كما كان ، بعد أن توضأ بظهور جيل الصحوة الواعد بالنصر .

يقول الشاعر :

أرى الشعب يا قلب يدفن حيا
إذا صاح : إني أجوع وأعرى
ويبقى العدو بأرض الرسالات
يخترق القدس شبرا فشبرا
تعذبني أمتي لا تريد إلا
حياة وتطمع في صد كسرى
جننت ، نعم حق لي أن أجن
مع الدجى ألمح في الأفق بشرى

والشاعر هنا يمزج ما بين الوطني والقومي ، كأن خضوع الشعب هنا رديف استقواء العدو هناك ، فاستئساد العدو الصهيوني في أرض الإسراء إن هو إلا نتاج تضعضع الشعوب العربية وقهرها على يد حكامها ، ولم يكن العدو ليتغلغل في القدس " شبرا فشبرا " لولا هذا الواقع الذي ينوء تحته الشعب العربي ، والمأساة التي تكشف عنها أجواء القصيدة أن هذا الواقع المختل يصبح هو الوضع الحقيقي المستوي ، يؤشر إلى تطبيع تام بينه وبين الشعوب العربية ، ويصبح الخروج عن هذا الواقع ومقابلته بالتحدي هو النشاز والشذوذ ، لكن الشاعر يتشبث بجنونه ، فهو يرى من خلال الفساد المستشري والعلة المزمنة أفقا مضيئا ، ليغلب تفاؤل الشعر على تشاؤم النثر الواقعي والسياسي .

الهوامش

١- المختار من شعر علال الفاسي - إعداد اللجنة الثقافية لحزب الاستقلال مايو ١٩٧٦م - ص ١٨٥ .
٢- نفسه . ص ١٩٠ .
٣- نفسه . ص ١٩٢ .
٤- نفسه . ص ١٦١ .
٥- نفسه . ص ١٦٢ .
٦- نفسه . ص ١٣٠ .
٧- نفسه .
٨- أحمد المجاطي : الفروسية - مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء - ١٤١٠هـ / ١٩٩٠ م - ص ٥٥ .
٩- حسن الأمراني : الزمان الجديد - دار الأمان - الرباط - ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م ص ٨٣ .
١٠- حسن الأمراني : المجد للأطفال والحجارة - ١٩٩٦م - مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء - ص ١٤٠
١١- نفس المصدر السابق ص ٤٩ .
١٢- مجلة المشكاة - العدد ٣٥/٣٤ - ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١ م ص ٢٩، والقصيدة كتبت قبل عدة سنوات كما ذكر لي الشاعر في جلسة خاصة .
١٣- عبد الرحمن عبد الوافي : ملحمة الشهيد ، سلسلة الحوار ٣٥ طبعة أولى ١٩٩٩م-مطبعة طوب بريس - الرباط - ص ٢٢ .
١٤- المشكاة - عدد مذكور ص ١٤ .

(■) كاتب وشاعر مغربي ، يعمل صحافيا -له مجموعة شعرية بعنوان " سأمشي في جنازتكم " خاصة حول الانتفاضة .